سبّابة شقّتْ القمر



عاشور الطويبي

شعر

أركنو

سبابة شقّت القمر   شِعر   2024

الغلاف   عاشور الطويبي

الناشر   دار أركنو للطباعة والنشر، ليبيا

فوتوغرافيا الحرب

ممرّ ضيّق على الحياة

رتلٌ

سيارات دَفْعٍ رُباعي مُسلّحة يتقدّم مُسرعاً

غبارٌ

يُغطّي عمائم ملوّنة وعباءات شاحبة ولُحِيٌّ طويلة

بنادقٌ

كلاشينكوف تلمع تحت سماء شديدة الزرقة

ابتسامات

نصف ميّتة وعيون تفتح على تيه وخذلان

رتلٌ

سيارات دفع رباعي مسلّحة

أتى من أرضٍ فيها الموتى

يركضون في شوارع كئيبة

رتلٌ

أوّله جحيم

وآخره جحيم.

طيارةٌ ورقيّة عند الفجر

مَن

سيرفع الآن طيّارته الورقية في سماء المدينة؟!

طائرتُك

الخضراء بجناحيها الأبيض والأسود

صارت بدَداً

لا بأس

لن تستيقظ المدينة إلّا على خراب أكبر

أسقُفُ

البيوت الطينية الواطئة تُحاول أن

ترتوي بطيارة ورقيّة عبرت

من هنا.

قريباً من المدفأة

بقايا

لحمِ جديان مُقدّد

قطفة تبغ ذابلة قرب المدفأة

جنودٌ

بيضٌ عيونهم الفارغة تُحدّق

في وجهٍ لطمتهُ ريحُ العداوة

سنينَ طويلة

الشايُ

ساخنٌ يفوح برائحة القرفة

صورةُ

الزعيمِ الجديد تكاد تُلامس السقف

فقط

قطراتُ ضوء الشمس

على بُندقيّة جاهزةٍ للقتل.

الولد

على يسار ضريح الوَليّ

وراء سُورٍ طِينيّ

قريباً من عين الشمس

يجلس الولدُ مُقرفِصاً

عيناه تتطلّعان إلى عَيني

الرجل القادم من أقصى الشمال

يُحاول أن يفهم ما الذي جاء يفعله

هنا في قرية ليس فيها إلّا الريح

الغبار يُغطّي الوجه والبذلة الداكنة

لكنّ أكثر ما شدّه:

رائحة العلكة

وبسكويت الكريمة بالعسل.

صورة الحاكم

ها هي بين يدي

بائع البُسُط الفارسية والبشتونية

لا يُرى منها

إلّا زِرّ أبيض كبير

يكاد يتوهّج

تماماً عند منتصف الصدر

قبّعة

على شكل قاربٍ صغير

بخطوط من صوف اللاما

الزعيم يبتسم

الزعيم غارق

في الحيرة مثل قبطان

مخمور.

حمار العربة

يُمكن

لحمار العربة

جرُّ العربةِ

وأكداس التبن

يُمكنه

حمْلُ النسوة الذاهبات

إلى وليمة العُرس

أو

يستلقي في ظلّ شجرة

أو

صخرة عالية

لكنْ

كيف له أن

يجُرّ صاحب العربة من نار مُستعِرة؟!

ضحكات

غبارٌ

يملأ الشوارع

روائحُ

وقود دبّابات وسيّارات صَدئة

في

ذلك الرُّكن الظليل قُرب حقل القنّب المحروق

بنادقُ

كثيرة تَلوح بين الطَّواقي المُزخرفة

ضحكاتٌ

كثيرة يُمكن غَرفُها من على الأرض .

المقبرة الجماعية

تأتي

الشاحنات المُحمّلة بالجُثث

يأتي

الناس المُحمَّلون بالخيبات والهزائم

يأتي

الأطبّاء بمعاطفهم البيضاء المُلطّخة بالدَّم

يقفون على حافّة حُفرة كبيرة

قاعها حزن لا ينتهي.

نسوة في الشارع

ماذا

تُخفي النسوة تحت عباءاتهن؟

حكايات

ذلّ وبرانس للمُرابطين في الجبال البعيدة

عيداناً للسواك

عطورَ صندل

طبيخاً جاهزاً للأكل

رُضّعاً في قماطات قطنية

وعرقاً غزيراً يسيل بين

ثنايا الجسد

و

ثنايا الروح.

ديار مدمّرة

سيقفون هُنا

سيقفون هُناك

على

ذات الدِّيار ودروب الدِّيار

سيستنشقون

دُخان البارود واللّحم المُحترِق

ثمّ

يرجعون إلى خِيامٍ عليها

كتابةٌ بحروف أجنبيّة كبيرة.

طفولة

انحنِ

قليلاً أيّها الولد

كي لا يسقط الرضيع عن ظهرك

ضعْ

يدك على تُراب هذه الأرض الملعونة

كي لا تقذفك ريحُ الكراهية

إلى مخيّمات العذاب

انحنِ

قليلاً أيّها الولدُ

كي لا تصفعك السّماء مرّتين.

فيضان وطوفان

غزّة

هل كانت غزّة حجراً مدوّراً تضربه الريح؟

هل كانت غزّة دلو ماء على حافّة بئر؟

هل كانت غزّة ضحكة ولدٍ يلعب في خانيونس؟

هل كانت غزّة التفاتة ذئب في برّية؟

هل كانت غزّة كونشِرتو جثامين تدخل الساحة ضحىً؟

هل كانت غزّة قفزة حصان قبل أن يموت في معركة؟

هل كانت غزّة ظلّ فراشة تحت عريشة عنب؟

هل كانت غزّة زفرةً حرّى تسقط على كفّ طفلة؟

هل كانت غزّة عين قتيل؟

هل كانت غزّة دماً يسيل أبيض مرّة وأخضر مرّة؟

هل كانت غزّة روحاً أطلقتها يدُ إله؟

هل كانت غزّة قلب سلطعون يركض تحت شمس حارّة؟

هل كانت غزّة سبّابة شقّت القمر؟

هل كانت غزّة صمت مجرّة عظيم؟

درنة

استيقظتُ فوجدتُ

سقف الغرفة بحراً،

قارباً يتّجه شمالاً

سترة القبطان

أزرارها الفضّية، تدنو وتبتعد.

ما قبضت قبضة من قلبي إلّا وجدتها تقطرُ بالحزن.

هكذا نحن، حصى يتقلّب مرّة للريح، ومرّة للشمس الحارقة.

أقول لنفسي:

على غفلة من الليل،

سأكون ذلك الضوء في الساحة

سأكون ذلك النخيل يحرس نوم الصحابة

سأكون تلك الغيمة فوق درنة وياسمين درنة.

نداء

يا حارس المدينة

لا توقظ الموتى

ارفع قنديلك إلى أعلى قليلاً

أو

امضِ إلى سريرك تحت شجرة التين

يا حارس المدينة

إنْ ضاعت أحلام المدينة

مَن يأتينا بمدينة جديدة؟

أيّ معنى

أيّ معنى للوقت،

حين تنزل الدمعة سهلة حارة،

ولا تفكّر في رعشة اليد التي تمسك بكوب الشاي،

أو تستيقظ قبل الفجر بساعات

تحاول أن تتذكّر أوّل مرّة قطفتَ فيها الموت!

أيّ معنى للوقت،

حين لا تعلم القرى والمدن،

إلى أين ترحل كلّ هذه الجثامين!

نخلتا الوادي

كلّما اغمضتُ عينيّ،

رأيت النخلتين الواقفتين على ضفّة الوادي، (وسْط البلاد.)

وحدهما تعرفان عدد الذين أخذهم الماء إلى الماء،

عدد الصيحات الخائفة والصيحات المهشّمة،

عدد الذين غمرهم الرمل وسحب أنفاسهم واحداً واحداً.

النخلتان الحزينتان

اللتان

كانتا شاهدتين

على الموت العظيم!

بصيرة

أشِح بصركَ عن الوردة

اتبع أثر الطائر الذي حطّ ورحل

هل تعرف كيف تجد أثر الطائر في الهواء؟!

اتبعه بقلبك فهو خبير بأثر الطائر.

غزّة مرّةً ثانية

مدينة ليس فيها من الظلال إلّا

ما يتبع بشراً منهَكين

أو بنادق مرفوعة في الهواء،

أو ما يعقب دخان القنابل الساقطة من سماء مثقوبة،

أو جثامين كاملة ومتفرّقة، تحملها أكتاف عجلى.

مدينة يستيقظ أهلها على موت وينامون على موت،

غير أنّها لا تموت!

تقرير سياسي

قال لي وهو يتحسّس بأصابعه بتلات الأزهار بجانبه:

هل تعلم من أين يأتي الوقت لديّ؟

من رعشة يدي حين ألامس بها زهرة،

أو من سكينة شحيحة

أو حتى من صوت ماءٍ ينساب والناس نيام!

قلتُ له، هل تعلم من أين يأتي الحزن؟

من مذلّة لا ترحل عنّا،

من أدعية لا تُستجاب،

من كلام كبير كثير نتن وتعفَّن في الحناجر،

من بادية هجرها الرعاة والقطا،

من بلدان من ورق تلمع في صحراء روح مهزومة،

من خطوات لا تقدر على المسير،

خطوات بلّلتها دماء القتيل.

خريف حزين حقّاً

الصيف أخذ المطر والرعد والريح، لم يترك شيئاً للخريف.

حسب الخريف بضع بيضات مسلوقات على حطب زيتون نخره حفّار الساق،

حسبه أن يتمشّى قليلاً صوب البحر وهو يدعك عينيه المرمدتين،

حسبه الوقوف جنباً إلى جنب مع المصلّين في جنازات لا تتوقّف،

حسبه أن يستعيد مذاق حلوى من طفولة بعيدة،

حسبه في آخر الأمر أن يجمع أوراق الأشجار اليابسة ويعدّ الشاي لشتاء جديد.

لقد كان الخريف أكثر حزناً من الصيّاد العائد إلى المرفأ الصغير!

شذرتان

يركض الدرويش، تتدلّى من رقبته صحراء عظيمة!

*

أرواحهم نغمات ناي، تعلو وتخفت.

ويحَه، مَن على سلّمه، يتدحرج القمر!

لا بأس، ترحلون من سجن إلى مقبرة

طريقة لتخفيف الأحزان

كي تخفف الحزن عن روحك التي صارت جافّة وهشّة، مثل

قرن خرّوب ملقى:

ارسمْ كائنات برؤوس عظيمة،

كائنات ترقّ حتى تصبح مثل حبالٍ من مسد،

كائنات تطارد شيئاً يلوح ويختفي أمامها،

كائنات تحملها أقدام عجلى

إلى صحراء باردة ليس فيها من الحياة إلا الريح.

خطوط سوداء داكنة كتومة، تلك التي تفضح كل سرّ!

صرت الآن أفهم

صرت الآن أفهم، أن الأحزان :

وديان، يتدحرج الموتى على ضفافها.

أشجار طلحٍ ، تهب العظاءات ما تحتاجه من ظلال.

هكذا يقاوم الضعيف

هكذا يقاوم الضعيفُ وهكذا يُهزمُ القويّ الغاشم.
حين ينعقدُ اللسان ولا يقدر على النطق، ينبت للعيون ألف لسان.

هكذا يقاوم الضعيفُ المظلوم، وهكذا يُهزمُ القوي الغاشم.
حين تعجز القدم عن أن تتقدّم أو تتراجع، تمدّ الأرض بساطها.

هكذا يقاوم الضعيفُ المظلوم، وهكذا يُهزمُ القوي الغاشم.
حين يطرح الطائر في المدى أُغنيته، تنصت الأشجار إلى شجن عظيم.

هكذا يقاوم الضعيفُ المظلوم، وهكذا يُهزم القويّ الغاشم.
حين يتوقف الزمن فلا حراك، تقترب الشمس وينشق القمر.

حين تسمعُ الكائنات الزلزلة في قلب الإنسان، يسقط مطر شديد..

هكذا يقاوم الضعيفُ المظلوم، وهكذا يُهزمُ القوي الغاشم.

حين تسقط على بيوت الناس، النار والفوسفور، تصير الأيدي بطول الشوارع.

صورة من بيان الناطق الصحفي لجيش الاحتلال

آن تصير الأجساد رماداً أسود، تصدح مكبرات الصوت:

اهربوا .

امضوا حتى لا نقتلكم لاحقاً .

لا وقت لديكم لانتظار النبي،

أو جيش الأخ الجار.

سنهدّ هذا الجدار، وذاك الجدار.

لا عباءة الأمير المذهبة الأطراف، تخفي عريكم،

لا سبائك الذهب المخفية تسدّ جوع بطونكم،

ولن تبرأ جراحكم بلثغة الفقيه،

ويد الرئيس الناعمة.

أتذكر زكريا محمد

القيام فجراً ثم الجلوس أمام شاشة حاسوب، عملٌ مرهق حقّاً!

كيف كان الراحل زكريا محمد يفعله وجعله طقساً لا يحيد عنه؟!

زكريا الذي لو عاش حتى طوفان الأقصى، كان سيكتب:

اليوم صار لحياتي معنى وصار لفلسطين معنى وصار للكون معنى.

لكن أبا خميس سيبقى يراوح في الخميس وهو يلاحق السبت!

"من هذا الذي يضع الأزهار على قبري قبل طلوع الشمس؟"!

ينقرُ زكريا بسبّابة واحدة على لوحة مفاتيح...

البريد

لقد توقّف البريد الذي يصل إلى المدينة

توقّف بائعو الحليب والقشدة عن المرور على البيوت

المفتوحة على الخراب والشمس

توقّف العمّال عن المجيء إلى المخبز عند الفجر

توقّفتْ الضحكات التي كانت تُسمع خلف النوافذ والزعتر

والشيح

توقفتْ الخطوات تماماً مثلما يتوقف عقربا ساعة نسيها

عجوز في خزانة خشبية

لذا لن تصل القصائد إلى أصحابها،

فقد قُتل سعاة البريد، وقُتل الأصحاب

لن نجلس على طاولة الإفطار نتبادل الحجج عن

أيّ أنواع الجبن أفضل،

أيّ الجهات يكون عشبها به رائحة إكليل الجبل

النهار صار أخرس، والأيدي لم تعد قادرة على التلويح

بالتحية للموتى الراحلين على عجل!

رماد قاتم في كل مكان،

عويل نائحات يتردّد صداه في أفران محرقة!

كونشيرتو العاشق الغزّاوي

إلى روح الروح وجدّها

استهلال

هذه قصيدة لا تقبل المشاركة، لا تقبل المرافقة، ولا المجاورة .

عن رجلٍ بوجه نبي، رجلٍ يشعّ منه نور .

لعله كان يسكن بيتاً في أعلى الهضبة أو قارباً يهتز بنسيم المحبة في بحر غزّة .

عندما يهدر شجن شفيفٌ في صدر عاشق، ماذا يفعل؟

عندما ترتجف أوراق الشجرة، لأنهما يجلسان تحتها! ماذا تقول الشجرة؟

"طفلتي، تغبطُ: القصب على صفيره، النافذة على حرّيتها، الريح على وفائها، النار على فتيلة القوة فيها.

هذا ألمٌ لا أقدر على احتماله!" يقول الجدُّ باسماً.

أنفاس الأطفال الذين أخذهم الغياب

الأمواج البيضاء تأتي على مهلٍ،

تُومئ برؤوسها إلى مزارع زيتون مُشبعٍ بالطمأنينة

دحرجة إثر دحرجة،

تقترب من رمل الشطّ،

تُهدهد قلق الريح الغربية،

تلسع خاصرة الشطّ،

حتى إذا تلامست أكتافها، تُحلّق في الفضاء نوارس ويمام.

لخمسين يوماً وليلة، موجات البحر،

تعيد إلى المدينة المهشّمة، أنفاس الأطفال الذين أخذهم الغياب.

هذه نهاية السَّهل، لكن ليست نهاية الوجع!

مُرَّ إنْ استطعتَ، بقدمين راسختين، أو

طِرْ فلا يراك العسسُ ولا المسيّرات.

هذا حجرٌ يسكن في أوّل الدرب، انظُرْ إليه، ماذا ترى؟

كيف يُنظرُ إلى حجر؟!

العينُ ليست وسيلتك، بل القلب.

هذه التفاتة الحفيدة،

وهذا رجل معمّم، يركض نحوها بيدين ممدودتين.

ارتشفْ عبقَ السكينة من ردائه، وأغمضْ عينيك مليّاً.

كأنّ السُّدّ ثقبته يدا نبي!

لسنواتٍ أحاول تشريح الوجع، أحاول شقّه نصفين

فلا أجدُ إلّا أنيناً حزيناً، بألسنة كثيرة،

وأوقاتاً لا شمس فيها ولا قمر.

الزمن يجعل الجراح أكبر وأعمق وأوجع.

الوجع قاربُ المظلومين يأخذهم من ساحل الهشاشة إلى ساحلين: ساحل ذلّة،
أو ساحل عزّة.

لو كان الوجود مياسم زهرة زعفران،
لكان وجوداً خفيفاً، بحُمرة الغروب المهيبة
لكن أين سيكون مكان الوجع فيه، ومكان الموت؟
على جدار بيتٍ دمّرته مدافع كراهية،
على كتف امرأة تحاول إخفاء عريها،
على أيدٍ ممدودة من تحت الركام تريد أن تحيا،
على شفاهٍ نسيت كيف تبتسم، وكيف تُغنّي،
على ربوة كانت يوماً بيتاً لحصان الحقل،
على كاميرات كثيرة تلتقط كلّ شيء ولا شيء،
على صراطٍ لم يعد مستقيماً،
وعلى جهنّم التي تقول: هل من مزيد!

لطخة لون على هذا الخدِّ الشاحب،
كلمة كثيفةٌ على هذه الساق المكسور،
لا يجمعان ما تفرّق من وحشي البراري.

لن ترى من عين المِسبار كيف تتهشّم المدينة وكيف يُقتل الأطفال.
الجرائم في مجلس الأمن،
صغيرة إذا ما رغبوا
وكبيرة إذا ما رغبوا.
خزانتهم تمتلئ بالأوراق والأصفاد، وصفوف العبارات الوهّاجة!

تلويحة إلى نوفل نيّوف

سيصعد الثورُ الهضبة،

لكنَّ الأحمال ثقيلة،

وكلّ هذه السنين أخذت ما أخذت

من هذا الجسد الصبور!

ما يجمعنا في الغرفة،

نهرٌ أخضر

ومرآةٌ مصقولة بإتقان!

ستلامس قدَما الثورِ حافّة الماء الفوّار

سيقف العجوز محنيَّ الظهر قريباً من الغياب.

تمعّنْ في الصورة، ماذا ترى؟

امرأةً بحجم بلاد

في رحمها ستّة أجنّة

من كلّ نهدٍ يسيل نهر رقراق.

وماذا أيضاً؟

أرى رجلاً يمشي غير بعيدٍ منها،

في يده قطفة نعناع

من فمه تسيل قصائد خضراء.

رفرِفْ عالياً يا ذيل الطاووس

رفرِفي عالياً يا سحابة العمر!

إلى حلبة الرقص

يدخل الأطفال

تدخل الفساتين الملوّنة المزركشة

تدخل الضحكات الطويلة والقصيرة

تدخل المعزة الرماديّة

تدخل السماء

تدخل الأرض

ويدخل ضارب الدفوف.

ينسلُّ الأبيض من سطح الصورة عريان،

أنظرُ إليه من وراء النافذة وتنظرُ إليه سحب مبعثرة.

ليلٌ طويل موحشٌ.

عسَسٌ وناقلات جنودٍ ومدافع.

سهول وهضاب ودخان كثيف .

غياب يلتهمه غياب!

كيف تنام المدينة

الأطفال القتلى يدقّون على الأبواب

ولا أبواب!

بعض المدن تفيض بالموتى

بعض المدن تفيض بالكراهية.

لكن هذه المدينة

مِزقة جناح تركتها الفجيعة ليوم القيامة!

تلويحة إلى إبراهيم حميدان

أخيراً فتحتْ سجادتكَ أبوابها،

أطلقت سراح طيور الغابة.

ألم تقل:

"سيأتي يومٌ تسمعون فيه طرقات الغريب على الباب،

وترون القمر شارداً في البرّية تتبعه الهداهد وجداول الماء.

ماذا تفعل الآن يا إبراهيم؟

أجعل المدى الشاسع بيتي."

لقد رحلَ الفتى

دوّرَ في كفّه حبّات مطر من طرابلس

وفي عروة سترته علّقَ سنبلة...

لك أن تضحك علينا الآن يا صديقي،
وأنت هناك في الضفّة الأُخرى من نهر الليثي!
لم تعد في حاجة للوقوف في الطوابير،
ولا لكتم العَبرة في صدرك على وطن أحببته.
اركبْ فرسكَ، دعها تنساب مثل الريح في سهول الخُمس،
أو توقّف في مقهى صغير في جامع الصقع.

قلتَ لي مرّة:
"لا تفزع من الريح يا عاشور!
لن تطوّح أشياءك في البيداء
حسبها أن تزيح عن قلبكَ الغبار قليلاً."

أيّهما أنتَ على يمين القبر؟
أنا طائر القصبي
أنا عود الريحان.
أنا كأس الشاي
أنا الذي على يمين القبر.

يا شجرة

أن تحملي البحر على ظهركِ، يا شجرة،

عبءٌ لا يقدر عليه أحدٌ غيرك.

أن تنفخ عن سبّابة الوقت غبار النسيان، يا شاعرُ،

عبءٌ لا يقدر عليه أحدٌ غيرك.

أن تدحرج الشجن من قفطان البذرة، يا خرّاز،

عبءٌ لا يقدر عليه أحدٌ غيرك.

أن تقصف الريح وتضعها في سرةّ الأرض، يا ثعبان،

عبءٌ لا يقدر عليه أحدٌ غيرك.

أن تعصر من عريشة العنب نبيذ الجنّة، يا سقّاء،

عبءٌ لا يقدر عليه أحدٌ غيرك.

أن تترك أبواب القلوب مشرعة، يا بوّاب،

عبءٌ لا يقدر عليه أحدٌ غيرك.

تعالي نضع رقعة الشطرنج بيننا،

أطلقي سراح حصانك في سهولي.

أمّا أنا فسأفكّرُ مثل ملكٍ مليّاً،

كيف أقتلُ الجنود ولا أموت.

جاء الطائرُ من النافذة المشرعة،

التفتَ يميناً وشمالاً، ثمّ حلّقَ في الجوّ.

حين أفقتُ من النومِ،

كان واقفاً على صدري!

لكلّ امرأة قنديل.

لكلّ ليلٍ قنديل.

لكلّ مدينة قنديل.

لكن!

لا قنديل لبومة الحقول الشهباء.

لا قنديل للغريب الحزين.

الوعلُ البرّي

أخذَ العروسَ،

خلخال العروس

وتنهيدة الحجر.

إلى أين يمتدّ جذر البندقية؟

إلى بيت كراهية

أو إلى قلب جبان.

أيّ عذاب

أيّ ألم

أيّ ذلّ

أيّ توحّش

هذا الذي يُحيط بنا يا الله؟!

"لقد ركضت الخيل إلى الحمادة الحمراء."

قال الفارس وهو يمتطي فرسه البيضاء،

مثلما قالت النسوة الصاعدات التلّة في أوّل الكاف.

"على العاصفة أن تهدأ قبل حلول الليل"

قال العجوز وهو يشرب شاي الشيح بعد صلاة العصر.

لم يتوقّف الرجل الغريب عن طحن القمح الشحيح،

ولم تتوقّف العروس عن قراءة رسالة حبيبها القديم.

أغرقت الأمطار الخيام والنيران والبيوت المهدّمة!

شجرة صنوبر، تركتها في طفولة مبكّرة،
كنتُ أراها تمدّ خيوطاً طويلة، رقيقةً،
إلى السماء البعيدة.

لم يكن ظلّها يكبر إلّا عندما تصير الشمس حمراء،
في الربيع، تأتي إليها طيور الفقّاقي ذوات الذيول
المستديرة الجميلة،
في ليالي الشتاء الباردة، تأتي إليها سلاحف من ترهونة،
صغيرة بأفواه مفتوحة.

تحتها نبتتْ أناشيد أطفال المدارس، وارتجفتْ قلوب
العاشقين.
على أغصانها العالية، علّقت النسوة،
حبال التين القادمة من غريان، وأحجبة المحبّة.

ليتَ لي الآن شجرة صنوبر ترعى مخاوف شيخوختي،
تجلس معي نُشاهد كيف تتقوّس الأماني
خلف القمر الراكض صوب شطّ صبراتة!

لا أدري إلى أين ذهبت بومة الحقول الشهباء في هذا الصباح الشتوي!

من مكتبي المُشرِف على بحر صبراتة، عند نهاية الشمال الأفريقي، أسمع صوت الريح، زفيفها الموحش، وأسمع هدير أمواج البحر.

أعرف أنّ قلبي مشدود بخيطٍ رفيعٍ أوّله في غزّة وآخره في غزّة.

أعرف أنّ دولاب الماء دائري مثل بيضة نعامة،

خشبه نعّمتْ ملمسه قطرات ماءٍ أبدي،

وقلبه يصدح بأغاني السهوب الشاسعة.

طوبى للصابرين هناك في مدينة خرّبتها كراهية عمياء!

طوبى لفرح يسرق الوقت من بين أدخنة القنابل ومواقد الطعام!

طوبى لطفولة نضجت ولم تتحطّم!

طوبى لمقاتلين حسبهم أن قالوا لا!

طوبى لغزّة ولأهل غزّة ولحجارة وبحر غزّة!

هل كان على غزّة حمل وِزر وتر التشيلّو الذي انقطع في واشنطن؟!

رائحة الملح تقضي حياتها تبحث عن بيتها وبيتها ليس البحر.

لم أعد في حاجة إلى أشياء كثيرة،
حسبي إيماءة هشّة،
وبعدٌ يُشبه القُرب.

في البحر سمكةٌ،
في الفضاء طائرٌ،
في البلاد قتلى بعدد الحجارة.

لماذا صارت الغيوم البرتقالية نحيلة يا جدّي؟!
هي حزنٌ غمست فيه الشمس أصابعها.
مثلما تفتّتين بأسنانك قطعة بسكويت، يفتّت عدوٌّ حَقود
أحلام أطفال في بلاد بعيدة.
لكنّ الأحلام دائماً حلوة يا جدّي!
أجل. وهذا ما يجعل الشمس تتأخّر في الغياب هناك، كي
يمدّ الدفء لحافه قليلاً على أجساد ترتجف.
لماذا يكره العدوّ الأطفال يا جدّي؟!
هذا عدوٌّ بلا طفولة، بلا بصيرة، والأشجار لا تنبت في قلبه.

الموت أنفاس تتنقّل على الأنامل
كما تتنقّل الحدأة على أشجار الطلح.
أيّ موت تختار يا حامل الكتاب؟
أيّ موت تضعه في خميرة خبزك يا غريق النهر؟
أيّ موتٍ تضعه في رجفة الناي يا صاحب القصب؟
أيّ موتٍ تنهمر به السموات على أرض الحزن العظيم؟

من أين تأتي الكراهية إلى قلب الإنسان؟

من وجود ناقص، ومن لغةٍ محطّمة، ينعكس عليها الليل والنهار.

أيّ شيءٍ هي الصرخة العالية في الكراهية؟

تلك التي تمزّق جسد الكينونة بدأب عظيم.

ماذا تثمر أزهار الكراهية؟

الحزن والألم،

الدهشة والأنين،

الموت والموت...

صور عائلية على حيطان مهشّمة

جثّة في فم ضبٍّ، تلمع حراشفه بالكراهية.

لقد خلعوا زعنفة الحوت، خلعوا أبديّة ناقصة.

ليس ماء ما يهطل على المدينة،

بل هو قطران مُشتعل.

الشمس تغضّنتْ،

صارت مثل تنّور فلاحة

تخرج اليرقات من صدرها.

هل تعلم، ما هي الزلزلة؟

لا عِلمَ لي!

أنت إذن في قلب الزلزلة.

هل قابلتَ بشراً فقدوا أطرافهم،

واحترقتْ بيوتهم، لكنّ

هم لا يتوقّفون عن الغِناء؟ !

لقد رأيتهم:

رؤوس كبيرة،

عيونهم بلون زيتون بيت لاهيا .

إن باغتهم خطرٌ،

صعدوا على سلالم تتدلّى من ظهورهم،

إلى سماء قريبة.

"ماذا تفعل حلقات النار في بيتنا؟"

يقول طفل يرسم في الهواء رغيفَ الخبز.

"لقد وجدنا البحر أحمر، والسماء مشقوقة ."

قال الصيّادون الذين عادوا بلا صيد.

"كان لبيتنا سلالم،

على جوانبها زرعت أمّي الحبق، والنعناع .

هل تقتل الرصاصة الحبق والنعناع؟ "!

قالت طفلة وهي تسير على طريق مليء برائحة البارود.

النسور التي في الفضاء صارت تطير مقلوبة .

لا تقف تحت صندوق يسقط من أعلى.

أين أقف إذن؟ قِف على قبر أو في مجزرة!

لم يأت نهارٌ يُرمّمُ بيد بيضاء

جروح السماء وجروحنا.

يدُ القاتل كبيرة .

يد القاتل ثقيلة .

يد القاتل برائحة الكلوروفورم .

يد القاتل تُغطّي شاشة التلفزيون .

يد القاتل تكتب البيانات والنشرات .

يد القاتل تُقشّر الآيات عن جدران المساجد والجوامع .

يد القاتل كسرتْ قلب عالَم جبان.

أنا الصليب المعقوف الذي أحرق كتاب الأدعية .

لا تنادني باسمي. أنا الصليب الذي أحرق كتاب الأدعية.

هذا ليس صوت بحر،

ولا صوت رمل،

ولا صوت رضيع .

هذا صوت إله يذبحونه على حجر.

طوق نجاة في كتاب أدعية .

طوق نجاة في حبّة فياغرا .

يمكنكَ الآن أن تموت بسعادة.

مثلما فقدتِ الأم غطاء رأسها وثيابها،

فقدتِ البلدة ...

هل تسمع كلّ ذلك النواح؟!

أسرعت الجثّة لاستقبال القذيفة .

النار لا تشتعل في أظافر القتلى.

لقد رأيتُ أزهاراً تنبت على بطن طفلة،

والكلام يخرج من فمها.

لقد رأيت أشجاراً تبيض أشجاراً مبتورة الأطراف تشتعل.

لقد جاءنا نبأ الذين احترقوا في الحقول وهُم يصلّون.

لم نقل شيئاً. كُنّا نركض خلف مائدة تسقط من السماء.

لم نجد خبزاً ولا بصلاً!

ليتني أخذتُ زهرتي الأنيقة، من بيتنا الذي كان يحترق!

الصرخة ابتلّتْ بالمطر .

الصاروخ أخذ الصرخة إلى بيتها في ساحة المستشفى.

ما أكثر فوّهات البنادق، وما أكثر القهر !

لقد أخذ الموتى أماكن الأشجار في الطرقات وعلى أرصفة المباني.

على الحائط، سهم يُشير إلى بائع أكفان، وغاسل جثامين.

على الحائط، وجهٌ يقرأ البسملة.

على الحائط، بعض بقايا الحائط.

عسكر، يحمل جماجم على أكتافه .

عسكر ينبش جثثاً في مقبرة.

عسكرٌ يشرب دماً صباح مساء.

لا رائحة تخرج من المباني المهدّمة.

حسبها أجنحة فراشات مكسورة، تملأ أرضية الساحة.

حياة باهتة، أبدية.

من كلّ نافذة مهشّمة، ترى عينين، تحدّقان في موت رحل وموت آت.

من كلّ بابٍ مهشّمٍ، تتداعى خطوات القتلى، للدخول.

من كلّ دمٍ سال، تنهض قبور لا حدّ لها.

مَن صبغ ضفيرة الجمجمة بالحنّاء؟

جفّ ثدي الوالدة على خنجر الجندي القاتل.

لا تحسب عدد أذرع الفجيعة يا فتى.

لو رأيت شجراً يبكي أمام بحر، فأنت شاهد على المذبحة.

الأصفر أخذ لونه من عيون الخائفين.

الأحمر أخذ ضحكاتهم كلّها.

أمّا ما تبقّى من الألوان،

فقد تأرجحت من عربة صغيرة يجرُّها حمار مُتعَب.

مطرٌ يأتي من ليل مُوحشٍ.

مطرٌ يسلُّ القلوب من الصدور.

هذه الدوائر تضيق.

هذه الفراشات تحترق.

هذه الجنازات يتبعها موتى في أكفان بيضاء.

هنا السحب تلتفّ على الصيحات.

هنا القمر صار أصغر من حبّة خردل.

هنا يقف الوقت على مائدة فارغة، فقط ليسقط في الظلمات.

يذهب الرؤساء إلى بيت القاتل،

يذهب السفراء والجنرالات إلى بيت القاتل.

أمّا القتيل، فتذهب إليه الطعنات والأدعية المبخّرة.

مَن وضع العيون على حوافّ الخناجر؟

لماذا لم تصل الفلكُ بعد؟

سنكتفي بحفنة من التمر، وندخل النوم زاحفين.

أدار الجنرال المجنون ظهره للكاميرات.

يلهو بحبل تتدلّى منه جماجم صغيرة وكبيرة،

ويصفّرُ لحنه الجنائزي.

ها أنت ذا تلعب بالنيازك.

ها أنت ذا تلعب بالجماجم.

رداؤك كفن طويل، وعينُك تشتهي محرقة.

عندما نحروا النبي على حجر، سال دمٌ أصفر.

وصل التنّين إلى مدينة الفقراء، وضَع بيضة، وقال لا تقربوها.

غطّى البَيْض الأرض على أهلها، ثم فقّس بشراً بأنيابٍ ومخالب.

روى الذين نجوا: غصّت الأرض بالجثامين وقِشْر البَيْض النتنة.

إلى أين يأخذ الجنود الفتى النحيل؟

لا تقِف هناك، فقط اتبع حدسك القديم.

هل جلبتَ حصانك؟

قريباً يصلُ إلى ربوة الزيتون.

هل تتذكّر الآن مَن سرق بيتك؟

أهذا هو، الطائر الذي يتبعك أبداً؟

لا تخف، دعه يحلّق ما شاء له،

سيعود إلى مكانه فوق الكثيب!

تنهض دقّاقات الأبواب من سباتها.

تمضي إلى زقاقٍ لاطمٍ،

تسحب من نافذة العجوز، نسّاجة الحكايات،

شالَ عرسها والضحكة التي خبّأتها

في مزهرية الغياب.

ها أنت ذا تسمع دقّات الدفوف.

قف وأنصتْ.

العالم مات.

تمشي وحيداً في شارع الخيبات.

لست الأوّل

ولن تكون الأخير.

نوافذُ تُفتحُ، أبوابٌ يزورها المرابون وسعاة البريد.

مدّ يدك،

اقطف رمّانة الجارة الخجول .

تأتي الخيول من السهول البعيدة،

عطشانة.

لك أن تشاهدها تقطع الساحات

والميادين،

تنثرُ أحزان الرعاة.

تركض والشمس تلمع على
أعرافها.

خبب،
خبب،
خبب.
الصحراء خلفك
وأمامك.
خبب،
خبب...

صانع الكراسي،
يجمع الظلال ونشارة الخشب،
يضعها في حفرة عميقة في جدار الليل.
حين يثمل وحيداً،
تأتيه الأغاني القديمة،
عارياً يرقص.

النهار ما يزال بعيداً،

وقلبه الشجيّ ثقيلٌ، ثقيل!

كيف استطعتَ

أنْ تطوي السماء ولا تبتلّ بالدم؟!

"لقد رأيتُ البحر في بحّة صوتها"، قلتَ .

كان عازف الترمبيت نائماً،

وساقية البار ترفع في يدها مشطاً أحمر .

"ما أطول الليل في حانة الزيتون"، قال بحّار عجوز.

امتلأ الشارعُ بالبشر.

امتلأتِ السماءُ بالألم.

عرباتُ الجنود الكبيرة، ثقيلة مثل الموت.

لا تدع أحداً يخدعك،

اليوم ليس وقتاً للرقص،

ولا لصيد الأرانب البرّية.

لك أن تختار بين قتيل في كفّه رغيف خبز،

وقتيلة في حضنها حجر.

لك أيضاً أن تختار قبراً بلا شاهدة،

أو قبراً بين شجرتين في دوّار يحترق.

أمْ لعلّك تريد موتاً ناقصاً

في زنزانة، أو حانة، أو

تحت راية نبي؟!

فقط الموت الكامل تذكرتك إلى الأبدية .

هل أتيتم جميعكم إلى النهر؟

الفجر الخائف يلتفتُ وراءه.

لعلّه يرى عريكم، اهتزاز الأغصان الطويلة

في أيديكم!

هل أتيتم جميعكم إلى الجبل؟

النهار في منتصفه، والقمر شاحب.

لا تتوقّفوا، فقط اتبعوا رائحة خبز ينضج

في تنّور.

هل أتيتم جميعكم إلى الصحراء؟

الكثبان نائمة، والحجارة تقودُ التائهين،

إلى بحرٍ وزبدِ بحر.

لا تجلسوا في ظلّ شجرة طلح،

إنّه مسحور.

نافذة السيارة مقفلة،

موسيقى الجاز في خفّتها، ثقلها، شجنها، وضحكاتها،

تملأ روحك، في هذا الليل، وهذه الوحشة.

إلى أين ينتهي الطريق؟

لا يهم!

أصوات حزينة، تقترب وتبتعد.

هذه أصوات روح مشقوقة.

لا تخف!

إلى أين يأخذ الجنود الفتى النحيل؟

إلى زنزانة رطبة وعتمة شديدة.

ما الذي فعله الفتى النحيل؟

سرق استدارة التفّاح وعجينة الخبز.

يا لهفي على فتى نحيلٍ بهيّ!

ماذا يسيلُ بين سبّابتَي عازف الكونترباص؟

ماءُ مدنٍ وبلدات جائعة،

دخان أشجار تشتعل،

خوف سلاحف،

وغناء موتى قبالة بحر.

وراءك تتساقط النيران. تمضي إلى برّية وخلاء.

الوحشة بيتك الآن.

الوحشة منديل الصبيّة التي تنزف الآن.

أمامك تسقط النيران. لا مكان تمضي إليه،

سوى موت بلا قبر.

خفيفة يدُ ناقرة الدفّ.

ثقيلة كلمات الأغنية.

دُمْ، دُمْ، دُمْ، تُمْ.

مصباح الغرفة يترنحُ سكران.

لقد سقطت الكلمة من فم المغنّي،

الكلمة الأخيرة وهو يرفع قبضته عالياً.

لقد سقط المغنّي،

في حانة معتمة،

في مدينة معتمة،

في بلادٍ معتمة،

في كوكب معتم.

سقطَ وهو يرفع قبضته عالياً.

مَن أكل الشمس؟

مَن أطلق الريح من سجن الليل؟

العبادُ الصالحون!

تعريفات سقطت من كتاب الحرب

الحرب

ذئاب تحوم حول حوضٍ يفيض بالقتَلة والقتْلى.

الوطن

شريطٌ لمّاع يضعه الداخلون، ويرميه الخارجون.

النضال

رأيٌ صائبٌ في وقته، الخُسران فيه فوز.

المطر

معروفٌ بخلع ملابسه في القفار.

صاحب المعالي

رَجلٌ يُقدّمُ رِجلاً ويؤخّرُ أُخرى.

صاحب السعادة

دخلُه باليورو ومصيره بائع سمك.

دولة الرئيس

يتركُ كلّ شيءٍ في مكانه من الحرص.

الرواية

سيلٌ عرمٌ وبطاحٌ هادئة.

القصيدة

رغباتٌ فاجرةٌ ونوافل بالليل والنهار.

الفيلم

تركُ ما عندكَ إلى ما لا عندكَ.

الصورة

زمنٌ يتراشق ببعضه في كلّ اتجاه.

الطاقية

لك أن تحتويها ولها أن تحتويك.

الفراغ

صرير بابٍ معلّق في الهواء.

الجناح

قدمُ طائرٍ وشهقةٌ ورقة.

الحبيبة

سريرها بلاد وشعرها سماء.

الغول

يراه الطقّاعون وسدنة الحكّام.

الصاحب

يحفظ سرّك ولا يُثقلك بأسراره.

الدفّ

صاحب أهواء، شاعريّ المزاج.

الجمال

لست في حاجة إلى يدٍ لتلمسه، ولا إلى عينٍ لتبصره .

الوردة

حسبها أنها هي.

الكستناء

طيّع لسيّده كثير الأسئلة.

الصنبور

بالغ الذكاء ورقيق الأنفاس.

السلسبيل

لا تواعد حبيبتك عنده فهو لصّ ماهرٌ.

الصبر

عُملةٌ لتصرفها، تحتاج إلى كثير من الأختام والتواقيع.

الشجرة

رائحة خشب في كانون تتركه العائلة خارج البيت آخر الليل.

النهر

قد يكون نهراً في كتاب الجغرافيا، أو أسماء منقوشة على شواهد قبور.

الوادي

تسيل فيه مياه المطر بعض وقت، ويسفّه العجاج بقية العام، بلا رحمة.

وسط المدينة

ملصقات أفلام على أعمدة ميادينها، أناسها يشربون القهوة واقفين،
مطاعم وجبات خفيفة ترطن بلغات غريبة.

المسلّحون

مقيّدون في سلاسل، تمتلئ بهم الأمكنة التي فقدت سكينتها.

العامّة

تصفهم النُّخب بالطيبة، والقصور في الفهم، لكنّ غضبهم لا ينجو منه أحد. العامّة شجرة الوجود.

الروح

عود قشّ تدوّم به الريح.

الرمل

صفيرٌ موحش، وحارس ليل.

الصحراء

شكٌّ صامت.

الغرقى

نحاس يلمع على سارية.

البيداء

عازف هيمان، النسيان دلاؤه التي يضعها على كلّ بئر.

الندى

أشياء تنهض من رقدتها، لتدخل أبدية سرمدية.

المنحدر

طريد ملقىً تحت شجرة، تزورها الغربان والبوم.

الثلج

سقيفة الجبال، رعشات الصنوبر العالي.

القمر

لصّ بوجوه كثيرة، لا ينام إلا في زنزانة الشمس .

الضحكات

رجفة الطائر، حين تلمس قدماه صدر البحر.

الخبز

مشيئة كائنات الله، لها في كلّ أرض أنبياء وأتباع.

العجين

لهب نار لا تهدأ، يراها الرحّل من وراء ألف كثيب.

الصمت

وديعة الإله، بيته دائماً في الأعالي.

النوم

حساء لذيذ، خادم يفتح أبواب الأرض والسموات.

الوهم

خريف الخطوات، خجولٌ، سارقُ لذّات.

النسيان

بوّابة خلود، أضاع مفتاح قفلها ملك عظيم.

الثورة العربية

لاح في الأفق برقٌ ثمّ خبا.

الشدائد

مرارة بمذاق القرفة ومرارة بمذاق الزعتر.

تخلّف

لا ينهض الناس إلا لشرّ أو خراب.

سقوط

المناضل الذي يفاخر بنضاله.

الخريف

غريبٌ فقد حذاءه عند بوّابة المدينة.

الصيف

تنهيدة على عتبة دار، غبار على جناح فراشة، سحابة مليئة بالأسماك.

الشتاء

الشتاء لصٌّ تفضحه شنشنة الأصداف في قلادة عنقه.

الربيع

طيّارة ورقية في أعالي السماء.

اللص

تكون له عدة أسماء، أقلّها محلّل سياسي.

النضال

رأيٌ صائبٌ في وقته.

الطفولة

عندما كنتَ أنتَ أنتَ.

الشهيد

من قتلناه وقتله العدو.

القلب

زهرةُ شوفان تكسر عيدانها الريح.

العين

غواية تصعد درج النور والظلمات.

النويرة

وريثة الصيّاد، خبيئة الفلّاحات.

الشعير

خادم الريح، يترك على كلّ عتبة باب قطعة خبز.

الكلمة

موجة تلاحق موجةً ليل نهار.

النجمة

صيحة تتكئ على أكتاف أشجار لا تتوقف عن القدوم .

الفارس

صهيل في سهول منحدرات جرداء، صهيل في مخازن السلاح.

القدم

حصاة، تدحرجها أبدية عظيمة.

القنفد

ليلٌ يلتقي عنده الجوع والعطش.

الغراب

غيمة تصرخ على أيّ جهة تميل.

الشجرة

غربال أوقات، غربال أنفاس.

النملة

صمت لا يعقبه غير الصمت.

المزهرية

قطةٌ تموء في النهار مرّة وفي الليل مرّة.

الرغبة

طيارة ورقية، طفل يقف فوق جبلٍ عالٍ.

التراب

أوّله يشبه آخره، كلّ يوم يرمي خميرة الأسلاف في نار التنّور.

النار

تسحب الأشياء إليها كما يسحب لصٌّ محفظة من جيب قميص.

الماء

لا يسأل الكائنات عن أرضٍ ريحها عالقة في خيشوم سمكة.

الهواء

يمشي بين هذا وذاك كسلطعون مخمور.

أنا

(أنا)،

تركض حافية في غزّة،

تقف أمام ركام حجارة، تقول:

هنا كان بيتي،

ثمّ تمضي، تقطع شوارع تهدّم كلّ ما كان

على جوانبها من عمارة وبنيان.

تشير إلى قذيفة كتب عليها:

الممثلون،

الرؤساء،

النواب،

والتلاميذ:

ليكن رميكم سديداً

وقتلاكم بلا حصر.

ثمّ تلتفت إلى نافذة محطّمة،

كانت تقف وراءها صبية؛

تسمع فيروز،

وتسقي بنسيم بحر غزّة حبقها الفوّاح.

(أنا)،

تحدّق في وجوه الهاربين من

جحيم نازلٍ من السماء،

فلا تجد أحداً تعرفه،

بل لم يعد للوجوه هيئة الوجوه.

أقدامٌ تركض إلى لا أين،

لا تصحبها صرخات، لا تعقبها صرخات.

الموت بلا قلب، القتلى بلا ملامح!

(أنا)،

تشتهي: حبّة طماطم، حبّة فراولة، كسرة خبز، رائحة شواء، لعقة سكّر، رشفة لبن، ملعقة مرق، ملمس الزبدة، بيضة مسلوقة، سباتاً لا يقطعه هلع، قميصاً لا يعلوه التراب والبارود، سريراً بشرشف نظيف، شبشب حمّام بألوان زاهية، سقفاً، حيطانا، طاولة وكرسيا، باباً ومفتاحا، شموع أعياد ميلاد، مشاهدة مباراة كرة قدم، الجلوس في المقهى بلا خوف، الصلاة في مسجد أو كنيسة، الضحك، الضحك الذي لا يشبه البكاء، الذهاب إلى المدرسة، الرجوع من المدرسة، الشجار مع الجيران، مخالفة المرور، شرب الشاي بالمريمية، أكل البيتزا الساخنة، ركوب الحافلة، انتظار حبيبة القلب، نشر الغسيل على سطح البيت، العودة من السوق الأسبوعي.....

(أنا)،

فقدتْ قلبها،

سرقه الذين يربّتون على كتفها ويقبّلون جبينها.

أخذوه إلى مسابحهم المذهّبة.

قالوا لها لا تخافي، سنعيده إليك:

ساطعاً كالشمس،

نظيفاً من الخطايا.

سنطعمه الكافيار والشوكولاتة الفاخرة.

(أنا)،

أينما وقفتْ،

ليلاً أو نهاراً،

يطعنها سجّان،

ويقطع رأسها قاتل ومرتزق.

كلما وضعوا الأصفاد حولها،

ارتفعت أصوات المحلّلين وأصحاب النياشين.

الملوك،

والأمراء،

والشيوخ،

والرؤساء،

يحبونها، لكنهم يسجنون

كلّ من يرفع رايتها

أو يرتدى كوفيتها.

(أنا)،

رمت حِملها،

كانت الأرض من طين تنتظر بذورها.

نبتتْ واخضرّتْ وأزهرت وطرحت ثمارها

على سهول مرويّة

بالدم.

رسالة إلى نازحٍ تحت القصف المتواصل

إنْ خطفك نعاسٌ إلى حضنه فتلك نعمة كبيرة
لقد صار سمعك قادراً على معرفة
القذيفة القاتلة
من
القذيفة القاتلة

لا تصدّق الدخان المتصاعد من الأبنية
هناك دائماً بشرٌ سينهضون للحياة
سيضحكون
لسائق العربة وحماره
لحامل الأرغفة الملطخة بالتراب والرماد
لطفلة حافية تربّت رأس قطّتها
لعجوز تغسل وشاحها بكفيّن مبلّلتين
لشرطي يقف في منتصف شيء ما ثم ينظر إلى السماء
لراهبة تبيع صليبها مقابل حفنة دقيق

لا تصدّق الموبايلات المرفوعة فوق الأعناق
جميعها جائعة لأشلاء ورؤوس لم تدفن في الشوارع بعد

لا تصدّق الخيام التي نصبها الأشقاء والأصدقاء
فهي سريعة الاشتعال
لا تصدّق الأناشيد والبيانات ونشرات الأخبار
والمطر الذي يأتي في الصيف
لا تصدّق أحلامك وكوابيسك وأمانيك
لقد وضعوا صورتك على ملصق ماء

هل ترى تلك البناية المهدّمة؟
هل ترى ذلك الصبي الذي يأكل العشب؟
هل ترى وجه الرئيس تحت طبقات المكياج؟
هل ترى الألم الآن؟
هل تعرف الألم الآن؟

أنت لم تمتْ بعد
يدكَ ما تزال قادرة على جرّ عربة

وستلاحقك الصرخات الخرساء

ستلاحقك وجوه كلّ الذين صعدوا أو نزلوا هذا الطريق

الموت يخرج من قلبك

قلبك لم يعد فيه مكان سوى

لنهر وبحر

لذا لا تصدق من قال إنكَ

متّ

كأني أرى رجلاً، في مركب، صغير، يلاحق موجة عالية، اقترب منها، غطّته وغطّتْ مركبه، فقال: هذا هو البحر, أخذتْ الموجة جسدها، وغاصت في الماء، فرأى كل ما حوله ماء ، وكلّ ما فوقه سماء، فقال: هذا هو البحر. كان قرص الشمس ينغمس ويهتزّ كما دقيق في غربال.

حجرٌ يرثي حجرا

جبل نفوسة

يتشبّث بظلّ شمس تتعجّل في الرحيل

ماذا يفعل ذلك الرجل متّكئاً على حجر

عيناه مغمضتان

يداه مسبلتان فوق غبار

في ساحة عبرها جنود الروم والوندال؟

ماذا تفعل تلك الحمامة بريشها الأسود

تضع منقارها على بياض كثيف؟

لماذا الهواء ساكن؟

لماذا لا صوت ولا صدى؟

*

عنقود عنب على حجر،

شهوة استدارة حنظلة تحدّق في حمادة حمراء

لا يخدع سرابُها غير عابرٍ مسّه عطشٌ شديد

أو سِرب قطا لم ينم الليل

*

أنفاس القهوة الساخنة تعلو

تلمس أجنحة الصقور المعلّقة على الجدار

"كلّ واحدٍ يتبع خطاه" قال العجوز الجالس عند الباب

"كلّ واحدٍ يحمل قلبه على كفه" قالت صانعة الجبن

لكن الشمس التي دخلت من النافذة كانت تتبع

أثر غبار قديم

أثر أحزان عظيمة

*

هكذا يستريح الرجل منحنياً على حجر

في مقبرة في مدينة الآلام

هكذا يستريح الماء في كأس تترنّح على يد امرأة

في مقبرة في مدينة الآلام

هكذا يستريح الوقت في نهار يكاد يرحل

في مقبرة في مدينة الآلام

*

تعال، أسقيك كأساً مليئة بالشجن

هل تقدر روحك على حملها؟!

لو نظرتَ إلى أعلى الشجرة ترى

أين تولد النغمات والريحَ التي تحملها

لو نظرتَ إلى حيث ينبض قلبك ترى

خياماً ترتعش على وتر مشدود

هل ترى هذه المسامير على الجدار؟

كلّ واحدٍ منها صدى شهقةٍ أو رعشة روح

كلّ واحدٍ منها قلبٌ مكسور

يا لشقاء الناس،

يعلّقون قلوبهم على جدار!

*

من داخل القفص

ترنو الطيور إلى الجالس على حجر

الجالسُ على حجر

يرنو إلى ماء يسيل من أعلى الشارع

الشارعُ

يرنو إلى سماء عالية داكنة

أسىً مهيبٌ يفيض

على الضفتين

*

مَن يسكن الحجر؟!

الليل والنهار يسكنان الحجر

مَن يؤنس الحجر؟!

كائنات البرّ والبحر

مَن يقتل الحجر؟!

يدٌ تقول أنا يد الله!

*

الحجر هذا الذي

يجلس ويقف

ينام ويطلق الصرخات

قد يكون بوّابة للنور

قد يكون بوابة للظلمات

*

إلى أين تذهب همهمات بائع السمك؟

لقد خطفتها أمواج البحر

ثم رمتها على رمل لا يعرفها

فنبتتْ أشجار عوسج ونخل وتفّاح

كلّما سقطت ثمرة،

تقلّبتْ موجة في بيتها

*

هل رأيت في حياتك حجرا يرثي حجرا؟!

لقد رأيتُ:

حجراً يقبّل حجرا

حجراً يذبح حجرا

حجراً يبيع حجرا

رأيتُ حجارة جُنّت

حجارة تغنّي في الأزقة والشوارع

نعم، لقد رأيت حجراً يرثي حجرا

*

ماذا تقول النخلة لزير الماء؟

أنت الشمس وأنا الظلّ

أنت الصوت وأنا صدى الصوت

أنت الجرح وأنا الطمأنينة

أنت الدائرة وأنا النقطة

أنت ما تريد وأنا ما أريد

*

لن تملّ المرأة من جلستها

لن يرجع السكّرُ إلى عنقود العنب

لن ترتعش اليدان تمدّان شهوات العشب على نهود الأرض

*

صورة الرجل في الإطار الخشبي قلقة

لا يعرف كيف يمد يده إلى يد هاتف قديم

كيف يقول الكلمات التي أثقلت قلبه بالأحزان

*

ساحة الشهداء مليئة

الموتى يقفون طوابير في أيديهم أعلام بيضاء

لقد غادرت السفينة المرفأ تدعّها الريح دعّاً

بابٌ يُفتح قبالة البحر

يدخل القمر وتدخل الناحبات

يدخل صانعو الأصفاد والمراجل

يدخل الخبّازون وقاطعو الطرق

يدخل الجبناء والعملاء

بابٌ وحيدٌ يُفتح قبالة البحر

*

ما كلام تأخذه من ساحة الغرباء؟

ألم تبع عنب الأمس وعنب اليوم؟!

هذه بعض طمأنينة تركها ميّت وراء الباب

خذها وامض ولا تلتفت!

*

مجازك ارتوى من رمل الصحراء

افتح له نافذة أو

اتركه يأخذ طريقه إلى

سرابٍ لا يشبه شيئا!

*

هذه بوّابة لخيّالة الرئيس

هذه بوّابة لجند القائد

قفْ حيث أنتَ

حسبك حجر تحطّ عليه

أحلامك، حزنك، جوعك، وغفرانك

*

صخب وجلبة

لا شيء سوى صخب وجلبة

بيت يسكنه بائعو الخرز والعقيق

*

يتساقط المطر على سترة الشاعر

تقف الطيور على كتفي الشاعر

عزف ناي وصوت يصدح بالغناء الشجي

ينهض الشاعر يمشي على مهل

على مهل

*

اضطربت الأرض وانسابت الآلام

في عروق المدينة

كدرة صفحة السماء

كدرة صفحة الأرض

الكائنات تدخل التيه

واحدة

واحدة

*

أيّ قلبيك تريد يا رجل؟

ذاك الذي يفرح

بالحجر والمطر

بالرعد والبرق

بالليل والنهار

بقلادة عقيق في جيد صبيّة